هذه الألوان دون تلك وعن مواطن برودتها وحرارتها، وعن رسم أشخاصها وبروز أخلاقهم واتساق جموعهم، وحركتهم وسكونهم»[25]، وكأن يحدثنا عن شغفه بالموسيقى والموسيقيين الكبار إلى حد الهوس؛ إذ أن أول ما يأسف عليه حين يعود «من باريس» إلى «القاهرة» (بعد أن قضى بفرنسا ثلاث سنوات) هو تلك المتعة التي كان يجدها في الاستماع إلى الموسيقى، وأول فقرة يكتبها إلى أحد أصدقائه الفرسيين لحظة هم بمغادرة «باريس» هي: «بعد بضع ساعات أكون قد فارقت «باريس» المحبوبة.. أسافر هذا المساء بقطار الساعة التاسعة، وغداً 25 مايو تكون الباخرة «راولبندي» قد أقلعت حاملة جثماني، وإن سئلت عن الروح قل إن روحه في قاعة كونسير بـ«ليل»[26].

* * *

ذلك هو مفهوم توفيق الحكيم للفن والفنان. والآن نتساءل: إذا كان الفنان الحقيقي، في نظر الحكيم، هو ذلك المخلوق العجيب الذي «تزوج الفن» وعاشره وأعطاه حياته كلها، فهل يستطيع أيضاً أن يتزوج المرأة وأن يعاشرها؟ وماذا سيعطيها إذا كان قد منح الفن كل شيء؟!.

يجيبنا توفيق الحكيم نفسه بأنه يمكن للفنان أن يعيش مع المرأة وأن يتزوجها، ولكن هذه المرأة ليست ككل النساء؛ إنها المرأة التي تدرك أن حياتها مع هذا الفنان ينبغي ألا تكون مشابهة لحياة الأخريات من النساء. إنها المرأة التي تبذل حياتها من أجل هذا المخلوق الذي يبذل هو الآخر حياته للفن دون أن يأسف. إنها تلك المرأة التي تُعنى بهذا المخلوق العجيب، فتزيل همومه، ولا تنتظر منه أن يزيل همومها ومتاعبها. إنها تلك المرأة الصموت الصبور التي تضحي بحياتها برضى وسرور. إنها تلك المرأةُ التي تضع في قلبها هذه الكلمة: «إنما يعيش الفنان من أجل الفن، وتعيش هي من أجل الفنان»[27].

ولعل أوضح نموذج لهذه المرأة في أعمال توفيق الحكيم هو «عنان» بطلة مسرحية «الخروج من الجنة» التي سنقف عندها قليلاً فيما بعد؛ فـ«عنان» تحس